عهد

لصاحب العزة محمد محمود جلال بك

— ٣ —

كان لأستاذى العظيم « الشيخ محمد عبد المطلب » أخذ فريد فى تعليمى، فقد يسلخ الساعة والساعتين يتلو على قصائد لمختلف الشعراء وفى شتى الأبواب ، ثم لشاعر واحد ، لا يترك لى فرصة توضح فيها معنى أو أسأل تفصيلاً عن الشاعر، وأنا فى إصغاء دقيق وكل ما يطلب منى . وكان يقول فى تبرير هذه الطريقة : « انما يريد أن يعقد سمعك شهر عصر معين؛ ثم نعود إلى مثل ذلك الشاعر بعينه ا فتنشأ لديك ملكة تميز بحيث ترجع ما تسمع ولأول ما تسمع إلى عصره . فاذا كانت الخطوة التالية وهى الاستماع لشاعر بذاته استطعت كذلك أن تتبين الشاعر من نفسه وطريقته والشائع من فنه »

ولن أشق على القراء فأجتزىء بأمثلة هى أقرب ما يصور روح الصديق الشاعر الشاب. وقد تسرنى من مروءتهم المشاركة والتتبع، فأما الأولى ففضل من علمهم؛ وأما الأخرى فوفاء يجزى الله عنه فى العاجلة قبل الآخرة. وسيرون من خلال القوافى صورة الشاعر ، وسيتبينون من القريض أسرار النفس ، وسيكون فى الاثنتين حين تتضامان تأريخ دقيق للشخصية.

وهنا نفتتح ديوانه بقصيدة فى « حكيم المعرة » رحمه الله

عاذلى مكنتك منى نفس ... عقها الدهر واستباها الحياء
قد تجاوزت فى ملامك حدا ... والدوا قد يكون منه الداء
أى لوم على قرين حجا يرنو ... لما لا تناله القرناء
ما عليها سوى المعالى أمير ... ولها النفس الكرام إماء
نفس حر لم يثنها عن ذرا المج ... د صعاب ولم يعقها عناء
عهدت ألفة التوجع لا تشجى ... لخطب يضيق عنه الفضاء
ما ترانى أسعى فاجهد نفسى ... ومن الخطب مدلهم عياء
أبدا أقطع الليالى بفكر ... يقطع الهم عزمه والمضاء
وكأن ليلى الطويل أمانى ... فما أن يبين منها رجاء
طال حتى مللته وأرى أن ... ليس تنجاب هذه الظلماء
وكأن الهلال فيه حبيب ... طال منه دون الحبيب الثواء
فضى يذرف الدموع فذى ... الأنجم دمع تقله الزرقاء
ودموعى بمقلتى جوار ... ولكم قرح العيون بكاء
هذه توقظ النفوس من ... اليأس وهذى فى مثلها الأساء

***

خفيت حكمة الاله عن الخلـ ... ـق فكل بعلمها أدعياء
كلهم يزعم الحقيقة ما يعلم، ... لله ما يكن الخفاء
فأسائل ساكن المعرة هل ... ضاقت عليه بجمعها الغبراء
أى شىء قضى القضاء عليه ... وهو شيخ يحار فيه القضاء

* * *

سعد المرء لا يقر بعيش ... وحياة مصيرها الانقضاء

* * *

لا يغرنك ما ترى فى رحالى ... من ثراء يضيق عنه الفضاء
قد ينال العلاء فيها أخو الفـ ... ـقر ويزرى بأهله الإثراء
انما المجد هبة من سبات ... هو للمجد والأمانى داء
وأرانى قضيت عشرا وتسعاً ... كان حظى فى كلهن العناء

***

أنظر على من وقع نظره ممن خلد التاريخ يسهل عليك تعرف اتجاهه واذكر أنه ينطق بهذا الشعر وينبى عن اختياره وهو فى التاسعة عشرة ؟ فى السن التى تتميز بالمرح وتضليل الأفهام بما يحوطها من مفاتن الدنيا منعكسة على مرآة الغرور. ولم يكن مناص أن يأتى حكمه كما يجب أن يكون أثر هذه النظرة للدنيا واتخاذ المثال « سعد المرء لا يقر بعيش »!

وفى التاسعة عشرة قل ألا يتحدث شاب عن الحب ، بين لداته ، أو فى شعره إن رزق الشاعرية . وها هو « أحمد عبد اللطيف البرطباطى » يقول فى « المذال والحب » ولكنك واجد بلاشك مع روح الاستقرار ريح الاعتداد بالنفس ، أو بالأحرى ما قرت به عينه من أحكام على من حوله !

أزف البين واستطار الرجاء ... ليت شعرى يا قلب كيف النجاء
أيها اللائمون ماذا تقم الحـ ... ـب وأنتم بكنهه جهلاء
ما كفى بعد ما حملت من الدا ... ء فأرضى بمذلكم وهو داء